حياة القلوب وموتها

علاماتها وأسبابها

تأليف الشيخ / عبدالعزيز بن عبدالله آل الشيخ
رئيس هيئة كبار العلماء واللجنة الدائمة للإفتاء

حياة القلوب وموتها
علاماتها وأسبابها

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن اهتدى بهداه..

أما بعد: فإن الحياة الحقيقية هي حياة القلب، والقلب كما أخبر رسول الله ﷺ هو: (**المضغة التي إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله**)[1]، وهو يصح، ويمرض، ويموت، مع بقاء الجسد حياً، فكم من البشر من يعيش في دنياه يأكل ويشرب ويذهب ويجيء كغيره من المخلوقات الحية، ولكن قلبه كقلوب الأموات؛ ولذا وصف الله المشركين قبل الإيمان بالموت فقال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ (سورة الأنعام:١٢٢).

ووصف المنافقين فقال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (سورة البقرة:١٠).

وقال تعالى: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (سورة التوبة:٨٧).

وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (سورة النحل:١٠٨).

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (سورة محمد:٢٤).

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٢) ومسلم برقم (١٠٧).

ويقول ابن القيم رحمه الله: "شتان بين أقوام موتى تحيا القلوب بذكرهم، وبين أقوام أحياء تموت القلوب بمخالطتهم"[1] فأهل الإيمان والطاعة وأهل العلم العاملين به وإن ماتوا فإن الاطلاع على سيرهم وأخبارهم تحيا به القلوب، وأهل الكفر والضلال والنفاق تموت القلوب بكثرة مخالطتهم وموالاتهم.

وقد أخبر الله جل وعلا عن صفات القلوب الحية السليمة، والقلوب المريضة والميتة قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ (سورة الحج:٤٦)، فالمقياس الصحيح الدقيق يعد العمى الحقيقي عمى القلب الذي يتعذر معه إبصار الحق، ويغلق به باب الخير عن المبتلى به.

وقال تعالى في وصف المعرضين عن الإيمان والذكر: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ (سورة الأعراف:١٧٩).

وفي الحديث الصحيح عن حُذَيْفَة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: (تُعْرَضُ الفِتَنُ علَى القُلُوبِ كالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فأيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَها، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ سَوْداءُ، وأَيُّ قَلْبٍ أنْكَرَها، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ بَيْضاءُ، حتَّى تَصِيرَ علَى قَلْبَيْنِ، علَى أبْيَضَ مِثْلِ الصَّفا فلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ ما دامَتِ السَّمَواتُ والأرْضُ، والآخَرُ أسْوَدُ مُرْبادًّا كالْكُوزِ، مُجَخِّيًا لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، ولا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إلَّا ما أُشْرِبَ مِن هَواه) أخرجه مسلم في صحيحه[2].

(١) الرسالة التبوكية ص ٧٤.

(٢) برقم (٢٣١)

وهـذا الحديث العظيم يبين بعض صفات القلب الميت ومن أهمها:

أنه لا يعرف المعروف أي لا يهتدي إلى معرفة الحق الذي يعرفه عموم أهل الإيمـان، ولا ينكر الباطل الذي يتفق أهل الإيمان على كونه باطلاً، فالموازين عنده معطلة، فربما عد الصواب خطأ والخطأ صواباً، وعد الحق باطلاً، والباطل حقاً، فهو لا يهتدي إلى معرفة الحق، ولا يسعى إليه، ولا يوفق للعبادة بنية خالصة، ولا يفرح بها، ولا ينفر من المعصية، ولا يحزن على فعلها، بل قد يفرح بها ويسر.

ومن صفاته أنه يشبه الإناء المقلوب على وجهه لا يمسك طعاماً ولا شراباً، والقلب الميت لا ينتفع بالمواعظ ولا ينتفع بالآيات إذا سمعها، ولا يتذكر إذا ذُكّر.

ومـن صفاته أنـه أسـود مظلم لا نـور فيه، وهـو قلب مغلق عن الخير قـال تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ (سـورة البقـرة:٨٨)، وهـو أعمى عما يفيده وأصـم عما ينفعه قـال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ (سورة الأعراف:١٧٩).

وأما القلوب الحية فهي مليئة بمحبة الله وتعظيمه وإجلاله تُقْبِل على فعل الخير وتسر به وتفرح بالتوفيق إليه، وتنتفع بالمواعظ، وتتفهم كلام الله ويلامس شغافها فتنبسط فرحا بالوعد، وتنقبض خوفا وفرقا عند سماع الوعيد، ويظهر أثر ذلك على جوارح الإنسان

وعمله فيقبل على الطاعة ويتلذذ بها ويفرح إذا وفّق إليها، ويحجم عن المعاصي وينفر منها ويحزن إذا وقع فيها فيبادر صاحبه إلى التوبة والندم ويدفع جوارحه لإحسان العمل.

ومن علامات حياة القلب التذكر عند التذكير والرجوع للحق والاستجابة له إذا دعي إليه، قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (سورة يس:٦٩-٧٠) فالنذارة والتحذير يستفيد منها القلب الحي أما القلب الميت فلا ينتفع بها.

وقال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (سورة الأنفال:٢٤)، فالإيمان الذي دعا الله له النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الذي يحيي القلوب الحياة الحقيقية، فهو كالغيث يحيي الأرض بعد موتها. يقول ابن القيم رحمه الله في تفسير هذه الآية: " أخبر سبحانه وتعالى أن حياتنا إنما هي بما يدعونا إليه الله والرسول من العلم والإيمان، فعلم أن موت القلب وهلاكه بفقد ذلك "[1] ويقول: "إن القلب الحي المستنير هو الذي عقل عن الله وأذعن وفهم عنه ، وانقاد لتوحيده ومتابعة ما بعث به رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والقلب الميت المظلم الذي لم يعقل عن الله ولا انقاد لما بعث به رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ ولهذا يصف هذا الضرب من الناس بأنهم أموات غير أحياء ..."[2] وقال في موضع آخر: " القلب الميت الذي لا حياة به، فهو لا يعرف ربه ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه، بل هو واقف مع شهواته ولذاته ،ولو كان فيها سخط ربه وغضبه..."[3]

(١) إغاثة اللهفان ١/ ٢٢.
(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية ٢/ ٣٩.
(٣) إغاثة اللهفان ١/ ٩.

وبين الله في كتابه العظيم أن صاحب القلب الميت كمن لا قلب له قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (سورة ق:٣٧) أي: لمن كان له قلب حي، فإن فيما قصه القرآن من هلاك الأمم العاصية ذكرى له وعظة، ومن لا يتذكر ويتعظ فليس له قلب حي، قال ابن جرير: "لمن كان له قلب" أي من هذه الأمة يعني بذلك القلب الحي"[١] أ.هـ.

ومن أهم أسباب حياة القلب ذكر الله جل وعلا، وأفضل الذكر كلام الله سبحانه وتعالى، فمن اشتغل لسانه بقراءة القرآن واشتغل قلبه بالتأمل في معانيه وتدبّر ما فيه من الوعد والوعيد والعبر، كان ذلك من أسباب حياة قلبه. ومن أعرض عن ذكر الله باللسان والتدبر في آيات الله بالقلب صدئ قلبه وكثر عليه الران ولا يزال يتراكم عليه حتى يطبع عليه فينغلق عن كل خير قال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ (سورة المطففين: ١٤).

ومن أسباب حياة القلب: ترك الذنوب ومجافاتها والنفرة منها، فالذنوب يولد بعضها بعضاً وإذا كثرت من غير توبة صادقة تراكمت على القلب فأمرضته وربما قتلته. جاء في الحديث الصحيح: "إنَّ العبدَ إذا أخطأَ خطيئةً نُكِتت في قلبِهِ نُكْتةٌ سوداءُ، فإذا هوَ نزعَ واستَغفرَ وتابَ صقِلَ قلبُهُ، وإن عادَ زيدَ فيها حتَّى تعلوَ قلبَهُ، وَهوَ الرَّانُ الَّذي ذَكَرَ اللَّه ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾"[٢].

(١) تفسير الطبري (٢٢/٣٧٣).
(٢) أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة برقم (٣٣٣٤)

وذكر ابن القيم أن من آثار المعصية "خفاء الحق وفساد القلب وقلة التوفيق، وخمول الذكر ونفرة الخلق والوحشة بين العبد وربه، ومحق البركة في الرزق والعمر، وحرمان العلم، وضيق الصدر، ولباس الذل، وإهانة العدو، وضنك العيش"[(١)].

ومن أسباب حياة القلب مجالسة الصالحين الذين يذكّرون الإنسان إذا نسي وينبهونه إذا غفل ويعينونه على الطاعة إذا تذكرها.

قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ (سورة الكهف: ٢٨).

فملازمة أهل الذكر والطاعة من أسباب حياة القلب وطاعة الغافلين عن ذكر الله من أسباب مرضه وموته.

ومن أسباب حياة القلب قيام الليل قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ (سورة المزمل: ٦)، فصلاة العبد في جوف الليل حيث لا يراه أحد إلا مولاه تورث الإخلاص الذي هو من علامات حياة القلب ويتجلّى فيها حب العبد لرضى ربه وطلبه، وبعده عن الرياء والسمعة.

وأما أسباب مرض القلب وموته فمنها:

اتباع الهوى وما تشتهيه النفس الأمارة بالسوء قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ (سورة الجاثية: ٢٣).

(١) الفوائد لابن القيم (٣٢/١)

ومنها فعل المعاصي والإصرار عليها كما في الحديث الصحيح: (إذا أذنب العبد الذنب نُكِتَ في قلبه نكتة سوداء) الحديث وقد تقدم[1].

ومنها اتباع المتشابه وعدم رده إلى المحكم وكثرة الجدال بالباطل قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ (سورة آل عمران: ٧)، فالذين يخوضون في آيات الله بغير علم ويثيرون الشبه ليشوشوا على الجهّال ويفسدوا عقائدهم والذين يصغون إلى باطلهم ويتبعون طريقهم هم ممن زاغت قلوبهم، وزيغ القلوب من أمراض الشبهات التي قد تؤدي إلى موت القلب والطبع عليه والعياذ بالله.

وأخيراً فعلى المسلم أن يبحث عما يحيي قلبه ويجتنب ما يؤدي إلى مرضه وموته. والله أسأل أن يصلح قلوبنا وأعمالنا وأن يجعلنا من أصحاب القلوب الحية التي تنتفع بالذكر وتستجيب لداعي الخير، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ

مفتي عام المملكة ورئيس هيئة كبار العلماء

والرئيس العام للبحوث العلمية والإفتاء

---

(١) سبق تخريجه.